

يسوع الناصري هو المسيح المنتظر قراءة لاهوتية تفسيرية لأناجيل الطفولة

مقدمة

يُعرف الإصحاحان الأوّلان من إنجيلي القديس متى والقديس لوقا عند النقاد الحديثين للكتاب المقدّس بأناجيل طفولة يسوع المسيح. وفي بنية كلّ من الروايتين ومضمونها ما يجيز تحليلها كوحدة أدبية متجانسة ومستقلة.

ولئن كان الإنجيلان كلاهما يهدفان إلى الحديث عن مولد يسوع المسيح وطفولته، إلّا أنّ كلاً منهما يظهر اختلافات بارزة إنّ من حيث الشكل أو من حيث المضمون الخاصّ بكلّ منهما. أضف إلى هذا أنّ الباحثين الكتابيين يجدون في هذه الاختلافات دلائل واضحة تدعم الفرضية القائلة بالاستقلال الأدبي لكلّ من متى ولوقا.

لا يدهشنا أن يكون الحدث نفسه قد رُوِيَ بطريقتين مختلفتين. هذه الظاهرة موجودة حتى في يومنا هذا، وذلك، مثلاً، في الطرق المختلفة التي تنقل بها الصحف في بيروت، كل منها بحسب إيديولوجيتها، الخبر نفسه إلى القراء. وعليه فإنّ إنشاء معمل، على سبيل المثال، قد يكون، عند البعض، رمزاً للازدهار، وهو نفسه قد يشكّل، عند البعض الآخر، تهديداً للمحيط البيئيّ. تلعب الخلفية الاجتماعية والثقافية للقارئ والكاتب دوراً أساسياً في المجالات التعبيرية للإنسان. سوف نعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.

تتألف هذه المساهمة الصغيرة في الموضوع الذي يجمعنا اليوم من جزأين أساسيين: تفسير عام للنصوص مع إشارة خاصة إلى بعض النقاط المتنازع عليها في الرواية^١ وعرض مختصر لمكانة تلك النصوص عند الجماعات الأرثوذكسية.

لن أقدم حلولاً نهائية، وذلك لأنّ دراستي هذه لا تدعي إعطاء أجوبة، ولكنها تحاول أن ترسم خطوطاً ثابتة لتأمل ناضج في هذه النصوص العزيزة على كلّ مسيحيّ في العالم أجمع.

تفسير النصوص

١. مقارنة البنية الداخلية للروايتين

نجد في إنجيل متى جزأين منفصلين بوضوح: عندنا، من جهة، نسب يسوع (متى ١ : ١-١٧)، ومن جهة أخرى ثلاث روايات تلي النسب وهي التي تتحدّث عن الطفولة (متى ١ : ١٨-٢٣).^٢ أما هذه الروايات الثلاث فهي الآتية:

- الحبل ببسوع، عمانوئيل (متى ١ : ١٨-٢٥)
- مجوس المشرق أمام ملك اليهود (متى ٢ : ١-١٢)

^١ نذكر منها على سبيل المثال: النسب في متى؛ دور يوسف، النجم، يسوع ومعلمي الشريعة.

^٢ Luz, U., Evangelio, 120.

- الهرب إلى مصر، ثم العودة والإقامة في الناصرة (متى ٢ :

١٣-٢٣)

في حين أنّ للنسب بنيته الخاصة فإنّ الروايات الثلاث تتشابه ببعضها البعض بمواضيع مشتركة ولغة خاصة بها: ملاك الربّ (متى ١ : ٢٠، ٢٤؛ ٢ : ١٩)، هيرودس (متى ٢ : ١، ١٩)، بيت لحم (٢ : ١، ٥، ١٦)، تحقّق النبوءات (٢ : ٥، ١٥، ١٧، ٢٣). في كلّ الأحوال لا يمكن اعتبار النسب وحدة مستقلة عن الروايات، وذلك لأنّ النسب مقدّمة للمواضيع التي تطرح لاحقاً في المقاطع التي تتحدّث عن الطفولة: النسب (متى ١ : ١، ١٨)، ابن داود (متى ١ : ١)، المولد (متى ١ : ١٦)، المسيح (متى ١ : ١٦، ١٧).

أما نصّ القديس لوقا فهو أطول بكثير من النصّ المتأنيّ. يستعمل الإنجيليّ الثالث شكلاً أدبيّاً يعرف بالموازاة^٣ ليبنى إنجيل الطفولة الذي لا يتكلّم فقط عن يسوع بل أيضاً عن القديس يوحنا المعمدان. وتتوالى عند لوقا بشارة زكريا وبشارة مريم، ومولّد يوحنا ومولد يسوع، وختانة يوحنا وختانة يسوع وتقديمه إلى الهيكل، لينتهي كلّ هذا برواية عن يسوع وهو في سنّه الثانية عشر يتحدّث إلى معلمي الناموس.

^٣ يقول Perrot, C., Recits, 37، إنّ الموازاة "شكل أدبيّ معروف جيّداً في العالم الهلينيّ المعاصر له" (أي المعاصر للوقا). فقد كان بلوطارخوس وكتّاب آخرون يستعملون هذه الطريقة لكتابة سير أناسٍ مرموقين. والروايات المتعلّقة بهيلليل وشماعي تشكّل مثلاً على استعمال الموازاة في الأدب الربانيّ.

يسوع	يوحنا المعمدان
١. المشهد: بشارة مريم لوقا ١: ٢٦-٣٨	١. المشهد: بشارة زكريا لوقا ١: ٥-٢٠
٢. المشهد: مريم واليصابات لوقا ١: ٣٩-٥٦	٢. المشهد: زكريا والشعب لوقا ١: ٢١-٢٥
٣. المشهد: مولد يسوع لوقا ٢: ١-٢٠	٣. المشهد: مولد يوحنا لوقا ١: ٥٧-٥٨
٤. المشهد: ختانة يسوع وتقديمه إلى الهيكل لوقا ٢: ٢١-٣٨	٤. المشهد: ختانة يوحنا لوقا ١: ٥٠-٧٩
٥. المقطع الختامي ورواية نموذجية: الصبي ينمو في الهيكل لوقا ٢: ٣٩-٥٢	٥. المقطع الختامي: الصبي ينمو في البرية لوقا ١: ٨٠

إذا ما قمنا بمقارنة أولى بين النصين نكتشف أوجه الشبه القليلة بينهما. ففي رواية الحبل بيسوع (متى ١: ١٨-٢٥؛ لوقا ١: ٢٦-٣٨) نجد التشابه الروائي الأوضح. يمكننا أن نذكر الهدف المشترك عند الإنجيليين ألا وهو استعمال الروايتين للتشديد على أنّ الطفل يسوع هو المسيح المنتظر لأنّ كتابات شعب الله سبقت فوعدت به:

- يقَدِّم متى يسوع وكأنه من نسل داود (متى ١ : ١ ، ٢٠) ،
 والمسيح (متى ١ : ١٧) وعمانوئيل (متى ١ : ٢٣) ، ويقول إنه فيه تمتّ
 النبوءات المسيانية في الإيمان اليهوديّ (متى ١ : ٢٢ ؛ ٢ : ٥ ، ١٥) .
 - ويدعو لوقا يسوع المسيح الربّ (لوقا ٢ : ١١ ؛ ٢٦) ، وابن
 العليّ وابن الله (لوقا ١ : ٣٢ ، ٣٥) . ويسوع أيضًا ابن داود (لوقا ١ :
 ٣٢ ؛ ٢ : ١١) وهو الذي فيه يبصر أتقياء إسرائيل الخلاص والفداء
 (لوقا ٢ : ٣٢ ، ٣٨) .

ثمة أيضًا قاسم مشترك آخر في غاية الأهمية، ألا وهو موضوع
 السماوات المفتوحة الذي يظهر من خلال الإعلانات والأحلام والرؤى.
 وهذا يدلّ على أننا في الحقبة المسيانية التي فيها تفتح السماوات من جديد
 لإتمام العمل الخلاصيّ النهائيّ.^٤

ويتفق الإنجيليون، علاوة على ذلك، على أنّ يوسف، وهو من نسل
 داود، كان خطيب مريم؛ وأنّ يسوع ولد في بيت لحم من أمّ بتول (وهذان
 عنصران مهمان بالنسبة للخريستولوجيا)، وأنّ كلّ ذلك حصل في زمن
 هيروودس الكبير.

^٤ يذكر دانيال ٩ : ١ ، ٢٠-٢٧ ملاك الربّ، جبرائيل، الذي يأتي ليعلمت مجيء أمير ممسوح من الربّ (متى ١ : ٢٠ وما يليها؛ لوقا ١ : ١١ ، ١٩ ، ٢٦) . أمّا إيليا فسيُرسَل مرة أخرى قبل مجيئ يوم الربّ (ملاخي ٣ : ٢٣-٢٤؛ لوقا ١ : ١٧) . كلّ النبوءات التي يستشهد متى بها ذات طابع مسيانيّ.

وكما ترون فإن أوجه الشبه ليست قليلة وهي كذلك أيضاً في المجال اللاهوتي. فلنتعرّف الآن بالتفصيل على المعاني المتضمنة في كلّ من النصين.

١. متى

مما لا شكّ فيه أنّ القديس متى يكتب إلى جماعة يهودية مسيحية حوالي السنوات ٨٠ إلى ٨٥ للميلاد.^٥ وقد عرف الآباء القديسون إنجيله منذ زمن مبكّر وقبلوه. وقد كتب هذا الكتاب ليقراً ضمن الجماعة الليتورجية. وتعكس بنيته نظرة المعلّم الذي يكتب إلى جماعته ليحثهم على التعمّق في الكلمة والتغذي منها. وهو الإنجيل الوحيد الذي يستعمل عبارة "كنيسة" (متى ١٦ : ١٨ ؛ ١٨ : ١٧) ويهتمّ لحياة الجماعة وتنظيمها.^٦ ويتميّز إنجيل متى بأحاديثه الخمسة المرتبة بحسب موضوعها والتي لها معناها في برنامج تحرير الإنجيل بشكل عام: في ٢٦ : ١١ ينتهي يسوع من كلّ الأحاديث.^٧ أمّا الجماعة التي يتوجّه إليها الإنجيل فمركزها مقاطعة سوريا الرومانية، وعلى الأرجح، إنطاكيا، وذلك لكون هذه الأخيرة مدينة مهمة يسهل من خلالها انتقال الكتاب إلى سائر الإمبراطورية الرومانية.

^٥ إليك بعض المعلومات التي تساعد على تحديد زمن كتابة الإنجيل: سقوط الهيكل أصبح من الماضي (متى ٢٢ : ٧). كان المجمع قد أصبح كياناً قائماً بذاته، لذا يتحدّث متى عن المجمع وعن رؤسائها. في رواية القيامة يتحدّث متى عن اليهود وكأنهم فريق ثالث. ومما لا شكّ فيه أنّه يستعمل مرقس كمصدر أدبي.
^٦ أنظر متى ١٨ بكامله وخصوصاً ١٨ : ١٥-١٨ حيث الكلام عن النصح الأخوي.
^٧ أحاديث متى الخمسة هي الآتية: (١) الحديث الإنجيلي في ٥-٧ : ٢) الحديث الرسولي في ١٠ : ٣) الحديث بالأمثال في ١٣ : ٤) الحديث الكنسي في ١٨ : ٥) الحديث الأخروي في ٢٤-٢٥.

ترتبط نصوص الطفولة بسائر الإنجيل ارتباطاً وثيقاً، وهي تعكس برنامجاً تحريريّاً وخطاً لاهوتياً لكاتب واحد. لكنّ هذا لا يمنع من أن تكون المصادر التي رجع إليها مؤلف الإنجيل الأول متأخرة بالمقارنة مع سائر إنجيله. أقول هذا لأنّه ثمة إجماع عند دارسي الكتاب المقدّس على أنّ الكرازة المسيحية الأولى كانت المصدر الرئيسيّ للأناجيل، وهذه الكرازة تعكسها مثلاً نصوص مثل ١ كورنثوس ١٥ : ٣-٤؛ رومية ١ : ٣-٤؛ ١ تسالونيكي ١ : ٩-١٠. أمّا أهمّ ما في هذه الكرازة فهو، بلا شكّ، موضوع الآلام والقيامة. ثم أضيف على هذا تعليم يسوع، مع مجموعات أقوال وأعمال تتعلّق بيسوع. وأخيراً، ولكي يكتمل القالب الروائيّ، أضيفت على الإنجيل أخبار الطفولة.^٨ هذا يعني أنّ الترتيب الزمنيّ لظهور المجموعات التي يتألف منها الإنجيل، أي الكرازة، ثم التعليم، ثم الطفولة، لا يحول دون أن تكون أخبار الطفولة شكلت جزءاً من الإنجيل منذ اللحظة الأولى. لننتقل الآن لنرى بعض التفاصيل في العمل المتانيّ.

النسب (متى ١ : ١-١٧): يبدأ القديس متى إنجيله بذكر النسب. العنوان هو "كتاب^٩ نسب يسوع المسيح، ابن داود، ابن إبراهيم". في العهد القديم وفي الشرق الأدنى القديم كان النسب يستعمل لوصف العلاقات القائمة بين الناس واللّه (أنظر تكوين ٥ : ١ وما يليها). والغاية منها

^٨ أنظر Fitzmeyer, J.A., Evangelio, 43s.

^٩ عبارة biblos اليونانية لا تعني فقط "كتاب"، ولكن أيضاً "سفر"، أنظر Luz, U., Evangelio, 122.

الإشارة إلى أن الله اختار أشخاصاً معينين ليعمل من خلالهم وليكونوا نموذجاً للآخرين. ويخلق النسب رابطاً يوحد بين مختلف التقاليد والأجيال ويحدد المعلم الضروري لفهم هذه الأحداث وتفسيرها.^{١١} يتحدث لوس عن وظيفة للنسب تتعلق بالحقوق الشرعية.^{١٢} وقد أراد متى، بوضعه النسب في مستهل عمله، أن يعطينا مفتاحاً لفهم هذا العمل.

وأما لقباً "ابن داود" و"ابن إبراهيم" فيشيران إلى الوعود المسيانية التي تحققت في يسوع المسيح.^{١٢}

ويبلغ انتظار ابن داود، الملك العادل الذي بسحب مشيئة الله، ذروته عند النبي إشعيا (أنظر إشعيا ٧ : ١٧-١٧ ؛ ٩ : ١-٦ ؛ ١١ : ١-٩)،^{١٣} ولو كان غيره من الأنبياء قد تحدثوا في هذا الموضوع: عاموس ٩ : ١١ ؛ إرميا ٢٣ : ٥-٨ ؛ ٣٣ : ١٤-٢٦ ؛ حزقيال ١٧ : ٢٢-٢٤. لهذا السبب يتحدث متى عن داود الملك في ١ : ٦، ولهذا أيضاً يرتب الأجيال في

¹⁰ أنظر: أبومراد، نقولا، نسب، ص ٣٨٧-٣٨٨.

¹¹ Luz, U., Evangelio, 128.

¹² يستعمل اسم يسوع المسيح في النسب كاسم مركب. عندما يعطي متى يسوع لقب المسيح فهو يسبقه بالتعريف (أنظر ١ : ١٦ ؛ ٢ : ٤ ؛ ١٦ : ١٦ ؛ ١٦ : ١٦ ؛ ٣٦).

¹³ إن نص إشعيا ١١ : ١-٩ هو وراء النصوص الليتورجية المستعملة في كنيستنا في عيد الميلاد. نذكر على سبيل المثال أرمس الأودية الرابعة من قانون الميلاد الذي يقول في جزئه الأول ما يأتي: "أيها المسيح المسيح لقد خرج قضيب من أصل يسي، ومنه قد نبنت زهرة في جبل مظلل مدغل، أيها الإله المنزه عن الهوى...".

مجموعات ثلاث يحتوي كلٌّ منها على أربعة عشر جيلاً. والقيمة العددية لاسم داود في العبرية (دَوِد) هي ٤+٦+٤، ما يساوي ١٤.^{١٤}

أما الوعد المعطى لنسل إبراهيم فهو وعد خلاصيّ، فهو النسل الذي أعطاه الله الخلاص (تكوين ١٢ : ١-٣).^{١٥}

وابن داود في العهد القديم هو أيضاً ابن الله: ٢صموئيل ٧ : ١٢-١٦؛ مزمور ٢ : ٧؛ مزمور ١١٠ : ٣؛ إشعياء ٩ : ٥-٦. من هنا أنّ يوسف، في النسب المتانّي، لا "يلد" يسوع كسائر الأسلاف، لكنّ يسوع "يولد" بصيغة المجهول الذي يستعمل للإشارة إلى أنّ الله هو الفاعل) من مريم.

الخلاصة: يحتوي النسب المتانّي على معنى لاهوتيّ عميق ووظيفته الرئيسية الإشارة، في بداية الإنجيل، إلى الدور المميّز الذي سيلعبه بطل القصة، يسوع الناصريّ.

¹⁴ أبو مراد، نقولا، نسب، ص ٣٨٩. من جهة أخرى تساوي المجموعات الثلاث التي تضمّ أربعة عشر جيلاً ست مجموعات من سبعة أجيال، يكون يسوع فيها بدايةً المجموعة السابعة من مجموعات الأجيال السبعة. ربما كان أصل هذا في الأسابيع السبعة التي يتحدّث عنها النبيّ دانيال (دانيال ٩ : ٢٥-٢٦)، حيث الأسبوع السابع هو الذي يعمل فيه الله في شعبه بشكل نهائيّ وأخرويّ (دانيال ١١ : ٤٠-١٢ : ١٣). ولعلّ للمجموعات السبع في متى أيضاً علاقة بصورة أخنوخ الذي يمثّل الجيل السابع بعد آدم (أنظر تكوين ٥ : ١ وما يليها ويهوذا ١٤).

¹⁵ الهدف من إدخال أربع نساء في النسب جعل خلاص الله ممتدّاً إلى كلّ الأمم وإلى الخطاة. النسوة الأربع المذكورات في النسب غريبات وفي العهد القديم أنهنّ خاطئات. مع ذلك يستعملهنّ الله ليحقّق خلاصه: ثامار (آرامية، زانية، تكوين ٣٨ : ١٤-١٨)، راحاب (من أريحا، زانية، ٢صموئيل ١١ : ١-٥)، راعوث (مؤابية، راعوث ٣ : ٧-١٥)، بتشبع، زوجة أورياً (كان أورياً حنثياً، زانية، ٢صموئيل ١١ : ١-٥). لمزيد من المعلومات أنظر Perrot, C., Recits, 20.

نجد النسب اللوقانيّ في لوقا ٣: ٢٣-٣٨، أي خارج نصوص إنجيل الطفولة وبعلاقة مباشرة بالمعمودية وبداية حياة سيدنا يسوع المسيح العلنية. يتفق لوقا في نسبه مع متى بتقديمه يسوع ابناً لداود وابناً لإبراهيم، ويختلف معه في إرجاعه إياه إلى سلفه الأوّل "آدم، ابن الله". بهذه الطريقة يعبر لوقا عن شمولية خلاص الله.^{١٦} أمّا نسل داود في لوقا فلا يقدّم عن طريق سليمان وغيره من ملوك إسرائيل الخاطئين بل عن طريق ابن لداود غير معروف هو ناتان (لوقا ٣: ٢١).^{١٧}

الحبل العذريّ بيسوع (متى ١: ١٨-٢٥): يوسف هو الشخصية الرئيسية في هذه الرواية. ويبدو أنّ القصة معروفة لدى القارئ. يستعيدها متى بنبرة تعليمية ذاكراً الأمور الأكثر أهمية وطريقة تفسيرها. ويستعمل متى في كلامه عن الحبل بيسوع أسلوباً بسيطاً، وهو لا ينشغل بعرض واقعيّ، بل قصده أن يفسّر دور يوسف في هذا المولد غير الاعتياديّ. فيوسف بارّ (dikaios) أمام الله (متى ١: ١٩) كما كان هابيل (متى ٢٣: ٣٥)، وكما سيكون يسوع (متى ٢٧: ١٩، ٢٤) وكلّ الذين سيتبعون وصاياه (متى ١٣: ٤٣؛ ٢٥: ٤٦). يطبع يوسف مشيئة الله (متى ١: ٢٤).

¹⁶ لا تعرف جماعة القديس لوقا، ذات الأصل الوثنيّ، بالضرورة الأحداث المرتبطة بثامار، وراحاب، وراعوث،

وبتشيح. ويستعمل لوقا لهذا طريقة أخرى لكي يوصل إلى قارئه معنى شمولية خلاص المسيح.

¹⁷ للمقارنة بين النسبين أنظر Perrot, C., Recits, 21 و-Fitzmeyer, J.A., Evangelio, 361.

أمّا الموضوع الرئيسيّ فنجدّه في الآيات ٢١-٢٣. فهذه الآيات تحمل الرسالة التي تحرّك الرواية كلها. رسالة المسيح الذي سيخلّص شعب الله. يشبّه بعض المفسرين أسلوب هذه الرواية بأسلوب المدرّاش. يلفت لوس انتباهنا إلى أنّ المدرّاش في العادة يفترض تفسير نصّ من العهد القديم.^{١٨} ربما أمكن القول أنّ متى يستعمل هذا النصّ لتفسير إشعياء ٧: ١٤ الذي يستشهد به في ١: ٢٣ بهدف إطلاق لقب عمانوئيل على يسوع.

ولقب عمانوئيل لا يأتي على ذكره إلا متى. فكلّ إنجيله مطبوع بهذه الميزة الخاصة (متى ١٧: ١٧؛ ١٨: ٢٠؛ ٢٦: ٢٩)، التي يلجأ إليها ليخلق تضييماً بين الآية التي نحن في صدد الكلام عنها (١: ٢٣) ونهاية الإنجيل (٢٨: ٢٠)، حيث نقرأ أنّ يسوع سيكون مع المؤمنين "كلّ الأيام إلى منتهى الدهر". يوحي هذا اللقب بحضور الربّ في الجماعة وبالطابع الليتورجيّ الذي للإنجيل الكنسيّ.

إنّ عبارة "عذراء" التي تظهر في الاستشهاد من إشعياء لا تتفق مع النصّ العبريّ الذي يورد عبارة "فتاة" (عُلماه) بل مع نصّ الترجمة السبعينية (parthenos بدلاً من neania). لا نعلم لماذا ترجمت السبعينية هذه الآية بهذا الشكل. أمّا ما نعرفه فهو أنّ صورة العذراء التي تلد أشخاصاً ذوي علاقة متينة بالآلهة صورة شائعة في الأدب اليونانيّ:

¹⁸ Luz, *Evangelio*, 137, n. 6

يذكرها كل من بلوطارخس، وديوجنس، وهيجينيوس، وفلافيوس يوسفوس.^{١٩} شكّل هذا النصّ في تاريخ الكنيسة الطويل سبباً لنقاشات حادة حول عذرية مريم، وخصوصاً حول عذريتها الدائمة. لا يمنعك النصّ من أن تستنتج كلاماً عن عذرية دائمة، وذلك لأنّ عبارة EOS يمكنها أيضاً الإشارة إلى ما بعد حدوث الفعل المشار إليه. غير أنّ متى ليس مهتماً بذكر هذا الأمر علناً، وذلك لأنه ليس في صدد كتابة دفاع عن مريم، فمريم شخصية ثانوية في روايته التي يركّز فيها على الحبل بالمسيح. عذرية مريم إذًا ليست موضوع هذا المقطع الرئيسيّ. أمّا قراءة الكنيسة الأرثوذكسية لهذا النصّ فشرعية وضرورية بالنسبة إلى نظامها العقائديّ. غير أنّ هذا لا يبرّر أيّ إقصاء فوريّ لقراءات أخرى. المهمّ أن نرى أنّ أيّ قراءة، بما فيها قراءتنا، تقود إلى تعليم مسيحيّ صحيح. فعذرية مريم مهمّة في وظيفتها المسيحانية ولا ينبغي اعتبارها موضوعاً قائماً بذاته.^{٢٠}

زيارة المجوس (متى ٢ : ١-١٢): في هذا المقطع يخبرنا متى عن لقاء الوثنيين بملك اليهود المزيف وبملكهم الحقيقيّ. فالتضاد ظاهر بوضوح. لا يروي متى، بخلاف لوقا، مولد المخلّص، كما أنّ لوقا لا يخبرنا عن زيارة المجوس.

¹⁹ Luz, *Evangelio*, 146, n. 54.

²⁰ لمزيد حول العذرية في متى أنظر Perrot, *Recits*, 25. إغناطيوس الإنطاكيّ يذكر عذرية مريم. ويتحدّث عن العذرية الدائمة أقلّيمس الإسكندريّ وأوريجنس وإسافوس القيصريّ وآخرون. وموضوع العذرية حاضر بقوة في ليتورجيا الكنيسة الأرثوذكسية.

ثمة تقليد لاتينيّ اعتبر المجوس ملوكاً، وذلك بربطهم بالمزمور ٧٢: ١٠، وجعلهم ثلاثة في العدد بالاستناد إلى الهدايا. أما الكنيستان السريانية والأرمنية فتتحدثان عن إثني عشر من المجوس. أمّا أسماؤهم، غاسبار، وملكور، وبلطصر، فتد في مخطوط باريسيّ من القرن السادس.²¹

في حين أنّ هيردوس ومعه كلّ أورشليم لا يعترفون بأهمية المسيا بل ينصبون له فخاً، يصير المنجمون، رمز الأمم الوثنية، أول من يأتي ليعبد الربّ. وموضوع الأمم الأتقياء من المواضيع المحبّبة عند متى: متى ٨: ١٠؛ ١٢؛ ١٨؛ ١٥؛ ٢٤؛ ٢٤؛ ١٤؛ ٢٨؛ ١٩.

أمّا موضوع النجم فهو أيضاً من المواضيع المعروفة في العالم الهلينيّ. ممّا يروى أنّ نجماً ظهر عند مولد رجل كبير (إمبراطور). وقد كان مصير الأشخاص مرتبطاً بالنجوم. أمّا في العالم العبريّ والمسيحيّ اليهوديّ الذي تنتمي إليه جماعة متى فالنجم إنّما يرمز إلى الملك المسيا. وهذا ما يظهره نصّ عدد ٢٤: ١٧:

النصّ الماسوريّتي: "يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم قضيب من إسرائيل".

نصّ السبعينية: "يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم رجل من إسرائيل".

الترجمو الفلستينيّ: "يقوم ملك من بيت يعقوب، ومخلص من بيت إسرائيل".

.Perrot, **Recits**, 29²¹

وأيضاً يرتبط يسوع بنجم في أعمال ٢٢: ١٦.

وثمة معلومة تاريخية تساعدنا على تفسير صورة النجم: في سنة ١٣٥ للميلاد قامت ثورة يهودية ثانية ضد الإمبراطورية الرومانية. وقد دعي قائدها بار كوخبا ("ابن النجم") من قبل الربّاي عقيبا المشهور الذي لم يتردد في اعتباره المسيحاً.

لكنّ النجم في متى ليس فقط صورة عن المسيحاً. فهو أيضاً علامة من الله هدفها قيادة المجوس إلى حيث ولد يسوع. فقد كان الأقدمون يعتبرون الكواكب كائنات حيّة. وكانت عند الوثنيين آلهة وعند اليهود المسيحيين كانت ملائكة.

لا يوجد فرق في الوظيفة بين النجم الذي يقود المجوس والملائكة الذين يقودون الرعاة في لوقا. الكلام، في الحاليتين، عن عناية الله التي تقود الناس.

الهروب إلى مصر والعودة منها. المذبحة (متى ٢: ١٣-٢٣): تذكرنا هذه الرواية بفرعون الذي أراد قتل موسى عندما كان طفلاً (خروج ١: ٢٢-٢: ٣) وكيف عاد موسى إلى مصر بعد موت فرعون (خروج ٤: ١٩-٢٠). كانت مصر الملجأ التقليديّ لفلسطين (١ ملوك ١: ٤٠؛ إرميا ٢٦: ٢١).

أمّا الاستشهاد بهوشع ١١ : ١ في متى ٢ : ١٥ فهو استشهاد يعيد إلى الأذهان خبرة الخروج من مصر. وهو استشهاد ملائم لأنّه يذكر "الولد"، و"الولد" عبارة مشتركة في استشهادات روايات الطفولة. ينظر متى إلى يسوع على أنه إسرائيل الجديد الذي يختبر خروجاً جديداً.

تكمّن وظيفة مشهد مذبحه الأطفال في بيت لحم في الاستهزاء بالملك الشرير كما أن كتاب الخروج يهزأ بفرعون الذي أراد قتل ذكور إسرائيل (في خروج ٢ : ١٠ أن ابنة فرعون نفسها هي التي اهتّمت بموسى وربته). من جهة أخرى تبين أنّ الشعب اليهودي، في نهاية المطاف، هو الذي سيتحمّل كراهية قاداته المزيفين وغضبهم.

٢. لوقا

في اعتقادي أنّ لوقا من كبار العارفين بالديانة اليهودية. ربما كان فريسيّاً مثل بولس أو دخيلاً. وربما تعلّم على يد بولس. يعرف العهد القديم معرفة عميقة جداً ويجد فيه الاستشهاد الذي يناسب كل رواية في عمله. غير أنّ لوقا كتب إلى جماعة من أصل وثنيّ. يمثّل ثيوفيلوس في لوقا ١ : ٣ قارئ لوقا النموذجيّ: فهو مسيحيّ مؤمن، يحبّ الله (من هنا اسمه ثيوفيلوس) وينتمي إلى الثقافة الهلنستية لذلك الوقت. يقال إنّ لوقا كتب في أفسس حوالي السنوات ٨٥-٩٠ للميلاد.

لا يقدم لوقا مقارنة تفصيلية ما بين يسوع والمعمدان. من نافل القول إنَّ شخص المعمدان يلعب دوراً أساسياً في الجماعة اللوقانية ولهذا السبب يكرّس له الإنجيلي الثالث نصاً بهذا الحجم.

عندما شرحنا متى ذكرنا بعض الخاصيات اللوقانية: نسبه الذي لا ينتمي إلى نصوص الطفولة، وعدم اهتمامه بشخص يوسف بل بشخص مريم، وسرده مولد يسوع بتفصيل، وغياب رواية المجوس واستبدالها عنده بالظهور الدائم لعدد كبير من الملائكة. سوف نلقي الضوء الآن على بعض الخاصيات الأخرى.

البشارة والزيارة (لوقا ١ : ٢٦-٤٥): في السرد اللوقانيّ يرمز ظهور الملائكة إلى السماوات المفتوحة التي تعمل بغية "الاستجابة إلى صلاة الشعب" (لوقا ١ : ١٠، ١٣) الذي ينتظر (لوقا ١ : ٢١). ثمّة عمل لله أخرويّ التوجّه. أمّا صورة الملائكة الذين يعلنون عمل الله فهي خاصّة بالأدب الرؤيويّ (دانيال، رؤيا يوحنا) المعاصر لكتابات العهد الجديد والذي نجده حاضراً بقوة في الكتاب الأخير من العهد الجديد.

تعظيمه مريم (١ : ٤٦-٥٥)، وصلاة زكريا (١ : ٦٧-٧٩) وصلاة سمعان (٢ : ٢٩-٣٢): تميّز هذه الأناشيد الثلاثة روايات الطفولة عند لوقا. وهي موجودة كلها في الصلوات اليومية في الكنيسة الأرثوذكسية^{٢٢} كما في صلوات الكنائس الأخرى. وتشكّل هذه الأناشيد خلاصة الإيمان والانتظار اليهوديين. يستعمل لوقا هنا فكر إشعيا ونصه. ويذكر كلّ أعمال الله الخلاصية لإسرائيل. أمّا موضوعاً فداسة الله ورحمته اللذان نجدهما في الأناشيد الثلاثة، فمأخوذان من المزامير (أنظر على سبيل المثال لا الحصر مزمور ٣٣ : ٢١ ؛ ٩٩ : ٣ ؛ ١٠٠ : ٥ ؛ ١٠٣ : ٨ ، ١٧). يظهر إبراهيم في التعظيمه أباً للإيمان (لوقا ١ : ٥٥)، وذكره بهذا الشكل مرتببً بتكوين ١٢ : ٣. أمّا الرؤيا المسيانية حول الملك العادل الذي يجري العدل ويهتمّ للفقير والمهمّش فحاضرةٌ في النشيد كلّهُ. تستعيد صلاة زكريا موضوع افتقاد الله شعبه الذي نجده، مثلاً، في خروج ٣ : ١٦. كثير من التعابير مصدره إشعيا: إعداد الطريق (إشعيا ٤٠ : ٣)، طريق السلام (إشعيا ١١ : ٦)، نور الأعالي (إشعيا ٦٠ : ١). تعبّر الأناشيد إذًا عن القراءة الصحيحة لأحداث الرواية. إنّها تفسير الشعب المؤمن لهذه الأحداث. يعبّر الأسلاف وسمعان في هذه الأناشيد عن المعنى الذي يحمله سماح الله بأن يولد هذان الطفلان. تنفتح أفواه مريم، وزكريا، وسمعان لتذيع المعرفة التي أعلنها الله لشعبه. وابتداءً من هنا على القارئ أن يفهم أنّ عمل هذين الشخصين هو عمل الله نفسه.

²² ترتل التعظيمه كلّ يوم في صلاة السحر، أمّا صلاة سمعان ففي الغروب وصلاة زكريا في خدمة السحر في أيام الصوم.

مولد يسوع وختانته (لوقا ٢ : ١ : ٢١): يتناول الإصحاح الثاني بكامله موضوع البحث عن الحقّ والعتور عليه. الرعاة، أي فقراء التعظيمة ولوقا ٢ : ٤٢، هم الذين يحافظون على المعرفة المعلنة. يولد يسوع وليس له "موضع" (لوقا ٢ : ٧) يولد فيه. هذه ميزة ليسوع اللوقائيّ الذي يكون دائماً على الطريق وليس عنده موضع يسند إليه رأسه (لوقا ٩ : ٥٨). يوضع يسوع في مذود لأنّ لا مكان له في النزل. يقول النقّاد إنّ هذا المذود يمكن أن يكون في مغارة محفورة في الصخر قرب المنزل. وربما كان المذود نفسه محفوراً هو أيضاً في الصخر. عبارة kataluma لا تعني بالضرورة غرفة في نزل بل البهو، وهي الغرفة المشتركة بين عدد من البيوت في تلك الأيام. منذ القديس يوستينوس (أواسط القرن الثاني) نسمع أنّ يسوع ولد في مغارة. يؤيد أوريجنس هذا التقليد.^{٢٣} وتوحي عبارة "مذود" التي تظهر ثلاث مرّات في الرواية (لوقا ٢ : ٧، ١٢، ١٦) بأجواء الرعاة وبيت لحم بصفتها مدينة الرعاة. وهو يبيّن التضاد بين قيصر الكليّ القدرة والمسيح الذي يولد في بيئة وضيعة وفي محيط خاص بالحيوانات. إنّ موضوع تواضع الخالق الذي يولد بين الحيوانات قد أوحى بالعديد من أناشيد الميلاد في الكنيسة.

²³ أنظر Perrot, C., *Recits*, 29 و Hengel, M., *fatne*, in: *ThWNT IX*, 51-57

ويشبه ظهور الملائكة ظهور الملاك عند البشارة: "لا تخافي"، " he " "aqui que"، "مخلص، مسيح، رب". ونجد تضادًا قويًا بين الليل والنور، وبين إعلان الملائكة والخوف، وبين السماء والأرض، وبين فقر المذود ومجد الرب.

يسوع بين معلّمي الناموس (لوقا ٢ : ٤١-٥٠): إن هذا المقطع تطابقه في رواية المعمدان إشارة بسيطة إلى كونه "كان يعيش في البرية" في ١ : ٨٠. نفهم هنا أن المكان الطبيعي ليسوع هو الهيكل، بيت أبيه. في كلّ السرد اللوقانيّ يتوجّه يسوع نحو الهيكل ليدخله في نهاية المطاف في ١٩ : ٤٥-٤٧. وهناك لا يتعجّب معلمو الناموس منه كما في هذا المقطع، ولكنهم يسعون إلى قتله. والموضوع هنا أيضًا هو (الفقدان) والتفتيش ثم العثور. وهذا شكل نموذجي في الأدب الحكمي. ويضع ذكر عبارة "الحكمة" في الآيتين ٤٠ و ٥٢ هذه الرواية في الجوّ الحكمي. يسوع هو المعلّم الذي يجالس المعلمين والذي في تعليمه ما يدهش ويحمل على العجب (في لوقا ٤ : ٢٠؛ ٥ : ٣؛ متى ٥ : ١ يجلس يسوع ليتكلّم).

يفتّش الأهل عن ابن ضائع ويجدون ابن الله يكشف الحكمة الإلهية. ولأنّ الأهل لم يعترفوا بوظيفته هذه لم يعرفوا أين ينبغي التفتيش عنه. ينتهي لوقا ٢ بمشهدٍ مأساويّ. البطل لا يفهمه أهله ولا يدعونه يقوم بعمله. وهذا انطباع أول عن صعوبة الرسالة التي على يسوع أن يتمّها.

تقبل متى ٢-١ ولوقا ٢-١ في الكنيسة

أعتقد أنه من الأساس القول أنه في التقاليد المسيحية الأقدم كانت روايات الطفولة تقرأ بارتباط مع المعمودية يسوع. لم يكن يكفي الاقتصار على الوعود المتعلقة بالمسيح الطفل، بل كانت هذه الوعود ترافق يسوع حتى بداية حياته العلنية بالمعمودية في الأردن. كان الميلاد والظهور الإلهي عيداً واحداً، كما هي الحال اليوم في الكنيسة الأرمنية. يتضح هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما سبق وقلناه عن أن لوقا يضع النسب في الإصحاح ٣ بعد المعمودية، وأن متى يربط الإصحاح ٣ بما قبله بعبارة "في تلك الأيام"، كما لو أنه لم تمرّ عشرون سنة أو أكثر بين العودة وبشارة المعمدان.

إن اختيار الإصحاحين ٢١ و٢٠ في متى ولوقا لدراستهما منفصلين أمر ينتمي إلى المجال العلمي. في حضان الكنيسة يشكّل متى ١-٤ وحدة لا تتجزأ في معناها تماماً كما هي الحال بالنسبة إلى لوقا ١-٤: ١٣ حيث الكلام عن بدايات يسوع.

إن النصوص التي تتلى على المؤمنين في الخدم المرتبطة بعيد الميلاد معظمها من إنجيل متى. في أحد النسبة يقرأ في القداس نسب متى ١: ١-٢٥. وفي قداس الميلاد يقرأ متى ٢: ١-١٢. وفي سحر العيد يقرأ متى ١: ١٨-٢٥. أما القراءات من لوقا فنجدتها بشكل خاص في خدم الساعات الملوكية للميلاد حيث تقرأ خصوصاً رواية ميلاد يسوع (لوقا ٢: ١-٢٠)

الذي لا يأتي متى على ذكره. أمّا روايات الطفولة اللوقانية فتقرأ في أعياد مختلفة في التقويم الأرثوذكسيّ: البشارة (٣/٢٥؛ لوقا ١ : ٢٤-٤٩ ، ٥٦) ، دخول السيّد إلى الهيكل (٢/٢؛ لوقا ٢ : ٢٢-٤٠) ، عيد سمعان وحنّة (٢/٣؛ لوقا ٢ : ٢٥-٣٨) ، عيد ختانة المسيح (١/١؛ لوقا ٢ : ٢٠-٢١) ، (٤٠-٥٢). ومن الجدير ذكره أنّ العديد من النصوص الليتورجية تستعيد موضوع المجوس عند متى والرعاة عند لوقا. والموضوع الرئيسيّ في هذه النصوص هو سرّ التجسّد من وجهة نظر عقائدية: اتحاد البشريّ بالإلهيّ. أمّا الموضوع الآخر الذي يؤتّى على ذكره فهو عذرية مريم التي يؤيّدتها كلّ من متى ولوقا.